

كي تهرب من القذيفة

أنس العيلة، فلسطين

1

كي تهرب من القذيفة
لن ينفعلك الركضُ
فقد تسقط هناك حيث تذهب مهروعاً بقدميك
ولن ينفعلك الاختباء تحت سقف
فقد يكون هذا بالذات
ما فتح شهية الإف 16
ولن ينفعلك أن ترفع الراية البيضاء
فأنت تلفت انتباههم إليك برايتك الناصعة
ولن ينفعلك اللجوء إلى مستشفى
حتى إن وجدت زاوية فارغة في البهو
فقنابلهم تطارد الجرحى في أسرّتهم
ويلطّخون المرايل البيض بالدم الساخن
ولن ينفعلك مركز لجوء في مدرسة مهجورة
فهي المكان المفضّل لهم
لصنع أكبر عدد من الضحايا في ضربة واحدة
ولا الاحتماء بمسجد أو كنيسة
فالأدعية والصلوات قد تنقذك من نار الله لكنها لن تحميك من نيرانهم
ولن ينفعلك الشاطئ
فهو سيكشفك في هذا الفراغ الممتدّ
وإن هربت للجنوب "المنطقة الآمنة"

ستجد الدبّابات
 ترصد حركتك عبر فوهة واسعة
 وورصاة القنّاص هناك في انتظارك
 ستبقى إذن في بيتك
 وستنتظر قدرك الذي تتساوى فرصة حدوثه في كل مكان تلجأ إليه أو تهرب منه!

2

صورة الجثة التي ينهشها الكلب في شوارع جباليا
 لم تذكرها أي قناة إعلامية
 لم تجد لها مكاناً صغيراً في شريط الأخبار
 لكن تحدّثت المذيعة باستفاضة
 عن فوز لاعبة تنس
 وعن أفضل الطرق
 لشراء تذاكر العطلة الصيفيّة بأسعار مغرية...
 انتهت نشرة أخبار الظهرية
 ونشرة أخبار الثامنة
 وأنا ما زلت أنتظر سماع أخبار من ماتوا.
 صورة الطفل الذي مات من البرد
 في خيمة في خانيونس
 لم تجد أيضاً مكاناً لها في نشرة الأخبار
 لم تمرّ صورته على شاشة التلفاز
 من بين آلاف الصور السريعة
 التي بالكاد تعلق بشبكة العين
 ولم يظهر خلف بقعة رمادية على الشاشة
 تخفي وجهه المتجمّد
 تجنّباً لإيذاء مشاعر المشاهدين
 ولم تذكر المذيعة حتى قصّته

ولو بسرعة إعلان عابر،
ولم تُعلن أيضاً عن اسمه الذي لم يكن قادراً على نطقه بَعْد.

ومع هذا أعترف أنني أشعر أحياناً بالراحة
وبالامتنان لهذه المديعة
فهي تمنحني وهماً أحتاجه كل مساء
ليكون نومي هادئاً:
أن كل ما وصلني على الفيسبوك من الصور المُفترسة
القادمة من بلدي
والتي تنزف في دماغي ببطء
ليست حقيقية ومجرد فوتوشوب!

3

يحتفلون بالدمار الذي خلفوه وراءهم
ويلتقطون سلفي جماعياً
أمام ركام هائل من البيوت
كان يبدو لهم المكان الأمثل لالتقاط
صورة للذكرى...
الغبار يتصاعد بين شارات النصر
ويعلق على أجسادهم التي لن يزول عنها بعد اليوم.

سلفي أمام بيتٍ يحترق
سلفي أمام جثة طازجة
سلفي أمام أجساد مكبلة تحت الشمس
سلفي على دراجة هوائية صغيرة
لصبي هرب على قدميه إلى الجنوب
سلفي بملابس نسائية

خَلَفْتَهَا امرأة تنام الآن في خيمة باردة
 سِلْفِي على مقعدٍ خالٍ في صَفِّ مدرسيِّ مُحَطَّمٍ
 سِلْفِي أمام تَلَّةٍ من ركامِ الشُّوقِ
 سِلْفِي أمام عمارة سكنية في تلك الأجزاء من الثانية
 التي ينمُّ تفجيرها فيها
 صانعا هرماً من الغبار الأسود
 كإطارٍ فنيٍّ في الصورة المأخوذة بعناية.

وسِلْفِي لجندي يدخُن النرجيلة
 ويسحب نفساً عميقاً قبل أن يطلق القذيفة
 على مَرَبِّعٍ سكني كامل.

كان هؤلاء الجنود يحتفظون بهذه الصور
 والفيديوهات في ملفٍ واحدٍ
 في هواتفهم الخلوية
 مع صور نسائهم وعوائلهم،
 حتى أن أحدهم
 وقع يوماً على صورة لطفلته بين صورتين
 قادمتين من غزّة!

4

الكرنفالُ يجوب أحياء ستراسبورغ
 موسيقيو الشوارع ولاعبو الخَفَّةِ
 والمتنكِّرون بزِيِّ الوحوش
 والقراصنة والأميرات
 والأجسام التي تتأرجح على سيقان طويلة...
 أتصفُّ الوجوه الفَرِحَةَ
 والأفئعة المنفوخة بالهواء

على موسيقى الكرنفال
وأقلبُ الصور القادمة من رفح
لرجالٍ ونساء يجزؤون أطفالهم
تحت طلقات الرصاص
التي تختلط الآن بقرع الطبول
وبالبهجة التي تصدح حولي...

جموع الكرنفال تغطي على صوت الأب الباكي
في الفيديو القصير
الذي أصغي لصرخاته وحدي
فلا أحد ينظر لهاتفه المحمول غيري
كان بعض المحتفلين يلتقط صوراً بهاتفه دون أن يعرف أنه يحفظُ ذكرى لحظةٍ
تمنيثُ لو أنني لم أعشها!

لم أرَ كوفيّة واحدة في هذا اليوم الراقص
في ساحة ستراسبورغ
لا علماً صغيراً يُذكرُ الناس
ببلد قريب يشطبونه الآن عن الخارطة
لا كلمة تضامن حتى بخطأٍ نحوّي على جدار أعزل
ولا في شارع فرعيّ...

لا أحد حزين غيري في ساحة ستراسبورغ
حيث تمتزج صيحات الرقص
وضوضاء الفرح
بصرخات الألم المُسرّبة من رفح.

من أين يأتي الأمل؟
هذا النورُ الخاطفُ في العتمة
كان ضوء القذيفة الذي سقط على وجوهنا

قبل أن تنفجر

من أين يأتي الأمل؟

من موسيقى راديو تأتي من بين الحطام
من دبابه تنشر امرأة عليها حبال الغسيل.

من أين يأتي الأمل؟

من التراب الذي امتصَّ أطناناً من النار والبارود
وما زالت تنفتق منه الورود والأغصان
ومن الهواء الذي ابتلع كلَّ هذا الرصاص
وكلَّ هذي الصرخات
وما زال قابلاً للتنفُّس
من البحر المحمّل بالاحتمالات
وإن حاصرنا شواطئه على مدى الأفق
ومن السماء، وإن أقلت أبوابها.

من أين يأتي الأمل؟

من جوف فارغ يصرخ
من رعشة يد الجندي
من جدار ما زال واقفاً
وتتخلله مئات الثقوب
من قطه تشمُّ التراب في حيٍّ مدمر
من غيمة سوداء تلاحق طائرة

من أين يأتي الأمل؟

من أنبوب أوكسجين ما زال يعمل في مستشفى منكوب
من رائحة الخبز التي تهبُّ من تحت الركام
يأتي الأمل من التكيّات المرتجلة

رغم أوامر الإخلاء
 ومن الصحفيين يعرّون الجنود أمام الكاميرا
 رغم أنهم جزءٌ دائمٌ من بنك الأهداف
 ويأتي من جنديٍ وراء الحدود
 يفقد صوابه رغم الأوامر العسكرية
 ويصرخ وحيداً باسم فلسطين
 من قصيدة عبّاسية قيلت منذ ألف عام
 وما زالت تصدح في البال
 ومن المُسيّرات القادمة من بعيد
 من الساهرين في ميناء جنوة
 ومن اعتراض السفن الحربية في البحر
 من حملات المقاطعة العابرة للحدود
 وعرائض الاحتجاج الموقّعة بالدمّ
 من نساء يحملن مجسّمات لأطفال صرعى
 في شوارع الماكدونالديز ومحلات المايكروسوفت
 ومن المُشاغبين في أروقة الجامعات
 وهم كفرق الإنقاذ يُخرجون جثثنا من قلب
 العتمة إلى الضوء

من أين يأتي الأمل؟

من صرخة فرانثيسكا ألبانيز

وأبي مارتن

وهنّ يقلبن المائدة أمام الكاميرا

ويمنحن للضحية وجهاً

واسماً

وصوتاً

من أين يأتي الأمل؟

من علم صغير في المترو
 يرفرف شهوراً ولا يعترض عليه أحد
 من شوارع العواصم المكتظة بصور أطفالنا
 من رقصة الدبكة في ساحة الروبيليك
 ومن مظاهرة تجمع ترنسجور مع امرأة محجّبة وبدلات رسمية وهيبز ولحي عريضة
 وطلبة مدارس وجامعات في مسيرة تضامن واحدة.

الأمل الذي يُحدِّق فينا
 قرب صاروخ نائم لم ينفجر
 قد يأتي من فيديو هات الجنود الساخرة
 وهي تسرّب الجرائم بكلّ يسرٍّ إلى التاريخ
 وقد يأتي الأمل من قائد معتوه
 يسوق إمبراطوريته،
 التي داست على أحلامنا بمجنزراتها،
 خطوةً خطوةً إلى الهاوية

الأمل الهارب من قبرٍ جماعيٍّ
 حيث تختلط الأسماء والأعضاء في مصير واحد
 قد يأتي من المكان الذي يصل فيه التوحُّش إلى ذروته وإن بدا مستحيلًا في تلك اللحظة بالذات
 ومن شعوب تحتفن بالألم وتخزّنه في ذاكرة جماعية
 وإن كانت ترقبه من شرفات بيوتٍ آمنة
 وعبر شاشات آيفون نظيفة
 إنّه الأمل الذي يتقن كلّ اللغات
 ويتلفّت حولنا برؤوسه العشر!